



كتاب العرب

او الرد على الشعوبية

لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة من اهل القرن الخامس (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً (قال) ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة جعلنا الله واباك على النعم شاكرين . وعند الحق والبلوى صابرين . وبالقسم من عطائه راضين . واعاذنا من فتنة العصبية وحمية الجاهلية وتحامل الشعوبية فانها بفرط الحسد ونغل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة ولحقق بها كل رذيلة وتغلو في القول وتسرف في الدم وتبتهت بالكذب وتكابر العيان وتكاد تكفر ثم يمنعها خوف السيف وتغص

(١) وجده الشيخ جمال الدين القاسمي من علماء دمشق في مكتبة المرحوم شاكر افندي الخزايي الدمشقي في مجموعة كانت موقوفة ونجز وقفها معنونا عليه بكتاب ذم الحسد تأليف العلامة ابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة رحمه الله تعالى بخط مسند الشام في عصره الشيخ ابراهيم الجينيبي الحنفي جامع الفتاوى الخيرية — من رجال القرن الثاني عشر — وقد نسخها رحمه الله على اصل مخروم الآخر حتى كتب في آخر نسخة ما مثاله : هذا آخر ما وجدته الخ .

من النبي صلى الله عليه وسلم اذا ذكر بالشجاء . وتطرف منه على القذى . وتبعد من الله بقدر بعدها من قرب واصطفى . وفي الافراط الملكية وفي الغلو البوار والحسد هو الداء العيا . اول ذنب عصي الله به في الارض والسماء . ومن تبين امر الحسد بعدل النظر اوجب سخطه على واهب النعمة وعداوته لموئقي الفضيلة لان الله تعالى يقول « نحن قسمنا بينهم معيشتهم ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات لتفخذ بعضهم بعضاً سخرياً » فهو تبارك وتعالى باسط الرزق وقاسم الحفظ والمبتدي بالعطا والمحسود آخذ ما أُعطي وجار الى غاية ما أُجري .

وقال ابن مسعود: لا تعادوا نعم الله قيل ومن يعادي نعم الله قال: حاسد الناس وفي بعض الكتب يقول الله: الحاسد عدو لعمتي متخط لقضائي غير راضٍ بقسمي . وقال ابن المقفع: الحاسد لا يبرح زارياً على نعمة الله لا يجد لها مزالاً ويكدر على نفسه ما به فلا يجد لها طعماً ولا يزال ساخطاً على من لا يتراضا ومتخطلاً لما لا ينال فوقه فهو مكطوم هلعٌ جزوع ظالم اشبه شيء بمظلم محروم الطلبة منغص المعيشة دائم السخط لا بما قسم له بقنع ولا على ما لم يقسم له يغلب والمحسود يتقلب في فضل الله مباشراً للسرور ممهلاً فيه الى مدة لا يقدر الناس لها على قطع وانتقاض ولو صبر الحسود على ما به وضمر لجرته كان خيراً له لانه كلما هزّ خساء الله وكلما نبح قذف بحجره وكلما اراد ان يطعن نور الله اعلاه الله وبأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون . والله در القائل :

واذا اراد الله تشرف فضيلة يوماً اتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورث ما كان يعرف طبيب عرف العود

ولم ار في هذه الشعوبية ارسخ عداوة ولا اشد نصبا للعرب من السفلة والحشوة واوباش النبط وابناء اكورة القرى فاما اشراف العجم وذوو الاخطار منهم واهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ويرون الشرف نسباً ثابتاً .

وقال رجل منهم لرجل من العرب: انت الشرف نسب والشريف من كل قوم نسب الشريف من كل قوم: وانما لهجت السفلة منهم بدم العرب لان منهم قوماً تحلوا بجليه الادب فجالسوا الاشراف وقوم اتسموا بميسم الكتابة فغربوا من السلطان فدخلتهم الانفة لا دأبهم والغضاخة لا قدرهم من لؤم مغارسهم وخبت عناصرهم فنههم من الحق نفسه باشراف العجم واعترى الى ملوكهم واساورتهم ودخل في باب فسيح

لا حجاب عليه ونسب واسع لا مدافع عنه ومنهم من اقام على خسارة بناغ عن لومه
ويدعي الشرف للعمم كلها ليكون من ذوي الشرف ويظهر بغض العرب ينتقصها
ويستفرغ مجهوده في مشاتها واظهار مثالها وتحريف الكلم في مناقبها وبلسانها تطلق
ويعممها اتف وبآدابها تسليح عليها فان هو عرف خيرا ستره وان ظهر حقره وان احتمل
الثأ وبلاث صرفه الى اقبها وان سمع سوءا نشره وان لم يسمعه نقر عنه وان لم يجده
نخرمه فهو كما قال القائل :

ان يعلموا الخير يخفوه وان علموا شرا اذيع وان لم يعلموا بهشوا

ومن ذا رحمك الله صفا فلم يكن له عيب وخلص فلم يكن فيه شوب .

وقيل لبعض الحكماء هل من احد ليس فيه عيب فقال لا لان الذي ليس فيه
عيب هو الذي لا يموت وغالب الناس يعيبهم بفضل عيبه وينقصهم بحسب نقصه
ويذيع عوراتهم ليكونوا شركاءه في عورته ولا شيء احب للفاسق من زلة العالم
ولا الى الخامل من عثرة الشريف قال الشاعر :

وبأخذ عيب الناس من عيب نفسه مراد لعمرى ان اردت قريب

وقال آخر :

واجرا من رأيت يظهر غيب على عيب الرجال ذوو العيوب

وقد كان زياد بن ابي سفيان حين كثر ملعن الناس عليه وعلى معاوية في استلخاته
عمل كتابا في المثالب لولده وقال من عهكم ففرعوه بنقصته ومن ندد عليكم فابدهوه
بثلبته فان الشر بالشر يتقى والحديد بالحديد يفلح .

وكان ابو عبيدة معمر بن المثنى اغرى الناس بمشائم الناس والمبعم بمثالب العرب
وحاله في نسبه وايه الاقرب اليه حال نكره ان تذكرها فتكون كمن امر ولم يأمر
وزجر عن التبع ولم يزدجر وهي مشهورة ولكن كرهنا ان تدون في الكتب وتخلد على
الدهر ولا سيما وهو رجل يحمل عنه العلم ويحتج بقوله في القرآن . ومن اتعب قلبا
وانصب فكريا امن اراد ان يجعل الحسنة سيئة والسيئة مثلبة ويخال لاخراج الباطل
في سورة الحق فيقصد من المناقب لمثل قوس حاجب يشحك منها ويزرى بها وبذهب
في ذلك الى خسارة العود وقلة ثمنه وهذا لو كان على مذاهب التجار والسوق سيفه
الرهون والمعاملات لرجع بالعيب على الآخذ لا على الدافع لان الدافع لا يألو ان يدفع
احقر ما يجد في اكثر ما يأخذ والمقبون من غرا بالصغير عن الكبير وانما رهن عن

العرب بما ضمنه عنها من كف الاذى عن مملكته حتى يحجوا وتكشف عنهم السنة ولو كان مكان القوس مائة الف رأس من الغنم عن هذا السبب ما كان القوس الا احسن بالدافع والقابل لان سلاح الرجل هي عزه وشرفه واسلام المال احسن من اسلام العز والشرف . وقد بدفع الرجل خاتمه وبرده او رداءه عن الاسر العظيم فلا يسلمه خوفاً من السبة وانفة من العار .

قال ابو عبيدة لما قتل وكيع بن ابي سود التميمي قتيبة بن مسلم الباهلي بخراسان بلغ ذلك سليمان وهو بمكة وهو حاج خطب الناس بمسجد عرفات وذكر غدر بني تميم واسراعهم في الفتن وتوئبهم على السلطان وخلافهم له فقام الفرزدق ففتح رداءه وقال يا امير المؤمنين هذا رداي رهناً بوفاء تميم ومقامها على طاعتك فلما جاءت بيعة وكيع قال الفرزدق :

فدى لسيوف من تميم وفي بها رداي وحلت عن وجوه الالهاتم
يريد الالهتم بن سمي التميمي ورهطه وهذا شيار بن عمرو بن جابر الفزاري ضمن لبعض الملوك الف بغير دية ابيه ورهته قوسه فقبلها منه على ذلك وساقها اليه وفيه يقول الغائل :

ونحن رهنا القوس ثم تخلصت بالف على ظهر الفزاري اقربا
وسيار هذا هو جد هرم الذي ثاثر اليه عامر وعلقمة . ومن هذا الباب قول جران وذكر اجتماعه مع نساء كان يألفهن :

ذهبن بمساكني وقد قلت انه سيوجد هذا عندك فيعرف
يظن من لا يعرف هذا الخبر انهن سلبته المساوك فاعتد عليهن واخبرهن انه سيوجد عندهن ويعرف لتقدر المساوك عندهن وعنده ولان الاعراب انظر قوم في الشافه الحقيق الذي لا خطر له وكيف يظن به وبهن هذا وبلد نجد مستحسب بضروب من شجر المساوك لا تحصى فكيف يجمل على نساء يهواهن يعود هو بصطلي به ويخبرز ويطبخ بشجره ومتى احتاج الى مساوك منه لم يتكلفه ثمن ولم يعد في طلبه والمعنى ان نجداً تختلف منابته فنه ما ينبت الاسحل ومنه ما ينبت الاراك ومنه ما ينبت البشام فاهل كل ناحية منهم يشاكون شجر بلدهم وكان جران العود معروفاً بهؤلاء النساء يزورهن على حذر من مزار بعيد وهو يستن من الشجر ما ينبت في بلده ولا ينبت في بلدهن فلما اخذن مساوكه ليشدركنه ويسترحن اليه كما يفعل المتحابون قال ان هذا

شيوجد عندكن وإذا وجد علم انه مما بذته البلد الذي اسكنه فاستدل به علي زيارتي
اياكن وبقصد لقول القائل :

ايا ابنة عبد الله وابنة مالك ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد

فيتضحك بالشعر ويستعزي بالبردين والفرس الورد ويعارض ذلك بملوك فارس
واسرتها وتيجانها وبان ابرويز ارتبط تسعائة وخمسين فيلاً على مرابطه وبلغت مخدته (?)
التي كان يشرف بها على الداخل عليه الف انا من الذهب وخدمته الف جارية وقد
جهل هذا معنى الشعر واخطأ في المعارضة ونفر بما ليس له فيه حظ ولا نصيب .

اما معنى الشعر فان ابا عبيدة ذكر ان وفود العرب اجتمعت عند النعمان بن المنذر
فاخرج بردي محرق وهو عمرو بن هند وقال ليقم اعز العرب قبيلة فيأخذها فقام
عامر بن احير بن بهدلة فاخذها فانزروا واحد وارثي باخر فقال له بما انت اعز العرب
فقال العز والعدد من العرب في معد ثم نزار ثم في مضر في خندف ثم في تميم ثم في سعد
ثم في كعب ثم في عوف ثم في بهدلة فمن انكر هذا من العرب فلينافرن فيسكت الناس
فقال النعمان هذه عشيرتك كما تزعم فكيف انت في اهل بيتك وفي بدنك فقال انا
ابو عشرة وعم عشرة وخال عشرة بغنيبي الاكبر عن الاصاغر والاصاغر عن الاكابر
فاما انا في بدني فهذا شاهدي ثم وضع قدمه على الارض وقال من ازالها من مكانها
فله مائة من الابل فلم يقم اليه احد من الناس فذهب بالبردين فسمي ذا البردين
قال الفرزدق :

فما تم في سعد ولا آل مالك غلام اذا ما قيل لم يتهدل

لم وهب النعمان ثوبي محرق بمجد معد المديد والمحصل

واما الفرس الورد فان الخيل حصون العرب ومثبت العز وسلم المجد وتما العيال
وبها تدرك النار وعليها تصيد الوحش وكانوا يوثرونها على الاولاد باللبن ويشدونها
بالافقية للطلب والحرب وقد كنى الله عنها في كتابه بالخير لما فيها من الخير فقال حكاية
عن نبيه سليمان صلى الله عليه وسلم « اني احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت
بالحجاب » يعني الخيل وبها كان شغل سليمان عن الصلاة حتى غربت الشمس
وقال طفيل :

وللخيل ايام فمن يصطبر لها ويعرف لها ايامها الخير يعقب

وقال آخر :

ولقد علمت على توفي الردى
اني وجدت الخليل عزاً ظاهراً
وبين بالشعر الخوف طلائعاً
باتوا بصائرهم على اكتافهم
وبصيرتي يعدوها عندى وأى

والبصرة الدم يريد انهم لم يدركوا النار فثقل الدماء على اكتافهم وانه قد ادرك
ثاره على فرسه وحدثني محمد بن عبيد قال حدثني سفيان بن عيينة عن شبيب بن
غرفة عن عروة البارقي قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (الخليل معقود
في نواصيه الخير الى يوم القيامة)

قال ابو محمد وليس لاحد مثل عتاق العرب ولا عند احد من الناس من العلم بها
ما عندهم وسأذكر من ذلك شيئاً فيما بعد ان شاء الله . واذا كان للرجل منها جواد
مجاهد اكرم شهر به وعرف فليل المسجدي ولاحق وداحس والورد . وليس اعجب
من سرير كسرى وغر العجم به وتصويرم اياه في الصخور الصم وفي رعان الجبال .
واذا رأيت العرب تنسب الى شيء خبيث في نفسه فليس ذلك الا لمعنى شريف فيه
كقولهم لهيدة بنت صعصة عمة الفرزدق ذات الخمار فمن لم يعرف سب الخمار هاهنا
يظن انها كانت تهتم دون نساء قومها فنسبت الى الخمار لذلك قال ابو عبيدة كانت
هيدة بنت صعصة تقول من جاء من نساء العرب باربعة مثل اربعتي يحل لها ان تضع
عندم خمارها فصرمتي لها ابي صعصة واخي غالب وخالي الاقرع بن حابس وزوجي
الزبرقان بن بدر فسميت ذات الخمار لذلك .

وقال كان هند بن ابي هالة ربيب النبي صلى الله عليه وسلم يقول : انا اكرم الناس
اربعة ابي رسول الله وامى خديجة واخي فاطمة واخي القاسم فهو لاء الاربعة لا اربعتها
واما خطأ في المعارضة فان صاحب البردين لم يكن ملك العرب فيعارضنا عنه بملك
العجم ولم يدع احد انه كان للعرب في دولة العجم مثل ملكها واموالها وعددها وسلاحها
وحربها ودبابها فيحتاج ان يذكر فيلة ابريز وجواربه وفرشه وقد كان هذا
لاواثك كما ذكرتم جعله الله لهؤلاء فاقزوه واستلبوه والتخوم كما بلشحي القصيد
والناسخ افضل من المنسوخ . واما غره بما ليس له فيه حظ ولا نصيب فانما يغر بملك
فارس ابناه ملوكها وابناه عمالمهم وكتائبهم وحجائبهم واساورتهم . فاما رجل من عرض
العجم وعوامهم لا يعرف له نسب ولا يشهر له اب فما حفظه في سرير كسرى وتاجه

وحريه ودياجه وليس هو من ذلك في مراح ولا مفدى ولا مظل ولا مأوى . فان قال لاني من العجم وكسرى من العجم فوجهاً بالمثل المبثذل ابن جابر التجار ولو قال ايضاً لاني من الناس وكسرى من الناس كان وهذا سواء وما هو باولى بهذا السبب من العرب لان العرب ايضاً من الناس .

قال ابو عبيدة: اجريت الخيل فطلع منها فرس سابق فجعل رجل من النظارة يكبر ويثب من الفرح فقال له رجل الى جانبه يافى اهذا السابق فرسك فقال لا ولكن الجمامي . وقال المسعودي : قدم علينا اعراب وكانوا باتون بضائعهم فأبيعها واقوم بمحو انجمهم وكانوا يقولون رحم الله اباك ديثاراً فكنت لا آلوهم عناية فقلت لم اخبروني عن السبب بينكم وبين ابي قالوا كان يساومنا مرة باتان فقلت لم هل كان اشتراها منكم قالوا لا قلت الله اكبر قالوا وما ذلك قلت لو اشارها صارت رحماً ونسباً .

وقد كانت العجم رحمك الله في ذلك الزمان طبق الارض شرقاً وغرباً وبراً وبحراً الاحمال معدة واليمن افكل هؤلاء اشراف فابن الوضعاء والادنياء والكساحون والخبثامون والدباغون والخارون والرعاع والمهان وهل كان ذوو الشرف في جملة الناس الا كاللغة في جلد البعير واين ذراريهم واعقابهم ادرجوا جميعاً فلم يبق منهم احد وبقي ابنا الملوك والاشراف .

واعجب من هذا ادعائهم الى اسحق بن ابراهيم صلى الله عليهما وسلم وغرهم على العرب بانه لسارة الحرة وان اسماعيل ابا العرب لهاجر وهي امة وقال شاعرهم :
 في بلدة لم تصل عكل بها طنباً ولا خباء ولا عك* وهمدان
 ولا لجرم ولا بهراء من وطن لكنهما لبني الاحرار اوطان
 ارض تبني بها كسرى مناسكه فنا بها من بني الفخاء انساب

فبنو الاحرار عندهم العجم من ولد اسحق واسحق لسارة وهي حرة وبنو الفخاء عندهم العرب لانهم من ولد اسماعيل واسماعيل لهاجر وهي امة قالوا والخبثاء عند العرب الامة فالويل الطويل هؤلاء والبعد والشبور من هذه العداوة لاولياء الله والانباز القبيحة لصفوة الله وقد غلطوا في التأويل على اللغة وليس كل امة عند العرب لخناء انما اللخناء من الاماء الممتنعة في رعي الابل وسقيها وجمع الحطب وحمله واستقاء الماء والحلب واشياء ذلك من الخدمة كما يقال الامة الوكعاء وليس كل امة وكعاء وانما قيل لها لخناء لثنتين ريجها ويقال لخن السقاء بلخن لخننا اذا تغير ريحه واثن .

واما مثل هاجر التي طهرها الله من كل دنس وطيبها من كل دفر وارتضاها لتغليل فراشا وللطيبين اسماعيل ومحمد عليهما الصلاة والسلام اما وجعلها لها سلالة فهل يجوز للمحدث فضلا عن مسلم ان يطلق عليها اللخن ولو لم يكن الا ابنت ملك القبط متع بها سارة وكانت انفس امائه عندهم واحظاهن لديه لقد كان في ذلك دليل على انها لم تكن من الاماء اللخن ولو جاز ان يطلق على كل امة لختا لجاز ان يقال لكل شريف ولدته امة هذا ابن اللخنة كما يقال هذا ابن الامة وقد ولدت الاماء الخلفاء والخيار والابرار مثل علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب والقاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق وسالم ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

حدثني سهل بن محمد قال حدثنا الاصمعي قال كان اهل المدينة بكرهون اتخاذ امهات الاولاد حتى نشأ فيهم هو^١ لاء الثلاثة فقأتوا اهل المدينة فقها وورعا فرغب الناس في السراري والنسب لا يعرفون لاهل فارس ولا للنبيط في اسحق بن ابراهيم حفظا لان اسحق تزوج رفقا بنت ناحور بن تارح وتارح هو آزر ورفقا بنت عمه فولدت له عيصو ويعقوب توأمين في بطن واحد فيعقوب هو اسرائيل الذي ولد الاسباط كلهم وكانوا اثني عشر رجلا واولادهم جميعا يدعون بنو اسرائيل وهم اهل الكتاب ليس هو^١ لاء فيهم سبب ولا نسب وعيصو هو ابو الروم وكان الروم رجلا اصفر شديد الصفرة في بياض ومن اجل ذلك سميت الروم بني الاصفر . قالوا وكانت ام الروم بنت اسماعيل ابن ابراهيم وولد من الروم خمسة نفر فكل من بارض الروم من نسل هو^١ لاء الرهط قالوا ولما سبقه يعقوب الى دعوة اسحق فصارت النبوة في ولده دعا لعيصو بالنساء والكثرة فالروم كلهم من ولده وبعض الناس يزعم ايضا ان الاشبان من ولده وقالوا النبيط بن ساروح بن ارغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارتخشد بن سام بن نوح ويقال انه ابن ماش بن سام ابن نوح قالوا واهل فارس من ولد لاوذ بن ارم بن سام بن نوح وكان كثير الولد فنزل ارض فارس فاجناس الفرس كلهم من ولده فليس بين هو^١ لاء وبين اسحق بن ابراهيم على ما ذكر النسابون نسب يجمعهم الا سام بن نوح والناس يجمعون في ولادة شيث بن آدم ثم في ولادة نوح ثم بتسعون فولد نوح اربعة نفر سام وحام ويافث وياهم فاما يام فهلك بالطوفان فلا عقب له وهو الذي قال له ابوه (يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) واما حام فان اباه لعنه ودعا عليه بان يكون عبدا لاختوبه فحملت ذريته وسقطت فيه فهم النوبة وفزان والزغاوة واجناس السودان والسند والقبط واما يافث

فان اياه دعا له بالناء والكثرة فولد الصقالب والترك ويا جوج ومأجوج وانما عدد الرمل والحصى في مشارق الارض . فاما سام فبارك عليه فاشرف الناس من ولده منهم العالقي ومنهم الجبارة وفراغت مصر وملوك فارس ومن ولد سام الانبياء جميعا بعد نوح وهود وصالح وشعيب وابراهيم ومن بعده الى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام . فالعرب وفارس يتساوون في هذه الجملة وتفضلها العرب بعدها بانها من ولد اسماعيل ابن ابراهيم فهي ادنى من خليل الله دناءة وامس به رحما .

ثم تتساوى العرب وفارس في ان الفريقين ملكوا وتفضلها العرب بان قواعد ملكها نبوة وقواعد ملك فارس استلاب وغلبة . وتفضلها العرب بان ملكها ناسخ وملك فارس منسوخ وتفضلها بان ملكها متصل بالساعة وملك فارس محدود وتفضلها العرب بان ملكها واغل في اقاصي البلاد داخل في آفاق الارض وملك فارس شظية منه ليس فيه الشام ولا الجزيرة ولا خراسان في اكثر مددهم ولا اليمن الا في ايام وهزر وسيفان ذي يزن .

ومن عجب امرهم ايضا فغرم على العرب بآدم بقول النبي صلى الله عليه وسلم لا تفضلوني عليه فالتما انا حسنة من حسناته ثم بالانبياء وانهم من العجم الا اربعة نفر هود وصالح وشعيب ومحمد صلى الله عليه وعليهم وسلم وفي هذا القول وضع الفخر على غير اساس ومن اسس بنيانه على الباطل والغرور اوشك ان يتداعى وان يخز وظلم للعرب فاحش ومنه ادعاهم آدم كان العرب ليسوا من ولده ومنه اتخالم موسى وعيسى وزكريا ويحيى واشباههم من بني اسرائيل وليس بين فارس وبين بني اسرائيل نسب على ما بينت لك ومنه دفعهم العرب عن قريتهم بهؤلاء الانبياء وهم بنو عمومهم وعصبتهم لان العرب بنو اسماعيل بن ابراهيم باجماع الناس فهم بنو اخي اسحق بن ابراهيم واولى به واحق بشرفه واولى بموسى وعيسى وداوود وسليمان وجميع الانبياء من ولده وقال الله تعالى (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) فال ابراهيم هم ولد اسحق وولد اسماعيل ثم قال (ذرية بعضها مني) فاعلمنا ان العرب وبني اسرائيل شي واحد في النسب وفيما اوحى الله الى موسى : اني ساقيم لبني اسرائيل من اخوتهم مثلك اجعل كلامي على فيه : يريد انه يقيم لهم من العرب نبيا مثل موسى يعني نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهذا علم من اعلامه وحجة من حججنا على اهل الكتاب من كتبهم فان قالوا في ذلك انه يقيم لهم من بني اسرائيل نبيا

مثل موسى وقالوا ان بني اسرائيل بعضهم اخوة بعض اكلهم النظر لانه لو اراد ذلك لقال لهم من انفسهم ومنهم كما ان رجلاً لو اراد ان يبعث رسولاً من خندف لم يقل سأبعث رسولاً من اخوة خندف فان كان دفعهم ولد اسماعيل عن تشابك نسبهم بولد اسحق لنزول اسماعيل الحرم وتكاحه في جرم فان الديار قد نثاءى والمحال قد ثباين والرجل قد ينكح في البعيد وقد بولد له من الاماء ولا تنقطع الارحام والانساب وان كان اسماعيل نطق بالعربية فليس اختلاف الناس في الالسنه يخرجهم عن نسب آبائهم واخوانهم وعشائهم فهو لاه اهل السريانية قد خالفوا في اللسان اهل العبرانية وهذه الروم كفرت بالله ولا شيء اقطع للعصمة من الكفر وتكلمت بالرومية ورغبت عن لسان آبائها وليس ذلك بمخرجها عن ولادة اسحق بن ابراهيم على ان اسماعيل لم يكن اول من نطق بالعربية وانما نطقها وانما اصل العربية لليمن لانهم من ولد يعرب بن قحطان وكان يعرب اول من تكلم بالعربية حين تبللت الالسن ببابل وسار حتى نزل اليمن في ولده ومن اتبعه من اهل بيته ثم نطق بعده ثمود بلسانه وشخص حتى نزل الحجر .

حدثني ابو حاتم قال حدثني الاصمعي قال اخبرنا ابو عمرو بن العلاء قال تسع قبائل قديمة طسم وجديس وعبيثة وضجيم (بالجم وبالحاء) وجعم والعاليق وقحطان وجرم وثمود .

وحدثني ابو حاتم قال حدثنا الاصمعي قال حدثنا ابن ابي الزناد عن رجل من جرم قال : نحن بدء من الخلق لا يشاركنا احد في انسابنا يقول من قدمنا فهو لاه قدماء العرب الذين فتق الله سنتهم بهذا اللسان وكانت انبياءهم عرباً هوذا وصالح وشعيب .

حدثني عبد الرحمن عن عبد المتعم عن ابيه عن وهب بن منبه انه سأل عن هود ا كان ابا اليمن الذي ولدهم قال لا ولكنه اخو اليمن في التوراة فلما وقعت العصبية بين العرب ونحوت مضر بابيها اسماعيل ادعت اليمن هودا ليكون لهم والد من الانبياء . (قال) واما شعيب من ولد رهط من المؤمنين تبعوا ابراهيم لما هاجر الى الشام ولم يكن يثبت لهم نسب في بني اسرائيل ولم تكن مدين قبيلة ولكنها امة بعث اليها فلما بوا الله اسماعيل الحرم وهو مطلق وانبط له زمزم مرت به من جرم رفقة فراءوا ما لم يكونوا يعبدونه واخبرتهم هاجر بنسب الصبي وحاله وما امر الله اياه فيه وفيها فتبركوا بالمكان ونزلوه وضموا اليهم اسماعيل فنشأ معهم ومع ولدانهم ثم انكحوه فتكلم بلسانهم فقبل

نطق بالعربية الا ان الياء زبدت في الاسم فخذت في السب كما تحذف اشياء من الزوائد وغير كما تغير اشياء عن اصولها والدليل على ان اصل اللسان لليمن انهم يقال لهم (العرب العاربة) ويقال لغيرهم (العرب المتعربة) يراد الداخلة في الرب المتعلمة منهم وكذلك معنى التفضل في اللغة يقال تنزر الرجل اذا دخل في تزار وتمصر اذا دخل في مضر ونقيس اذا دخل في قيس وقال الشاعر :

وقيس عيلان ومن نقيسا

ولو كان كل من تعلم لسانا غير لسان قومه ونطق به خارجا من نسبهم لوجب ان يكون كل من نطق بالعربية من العجم عربيا (وسأقول في الشرف باعدل القول وابين اسبابه ولا ابغض احدا حقه ولا اتجاوز به حده) فلا يتعني نسبي في العجم ان ادفعها عما تدعيه لها جهلتها واثني اعنتها عما تقدم اليها سفلتها واختصر القول واقتصر على العميون والتكت ولا اعرض للاحاديث الطوال في خطب العرب وتعداد ايامها ووفدات اشرافها على ملوك العجم ومقاماتها فان هذا وما اشبهه قد كثر في كتب الناس حتى اخلق ودرس حتى مل لا سيما واكثر هذه الاخبار لا طريق لها ولا نقلت من الثقات والمعروفين ايضا تجبر عن التكلف وتدل على الصنعة وارجو ان لا يطلع ذوو العقول واهل النظر مني على اثار هوى ولا تعمدر لتقويه وما اتبرا بعده من العثرة والزلة الا انت يوقني الله وما التوفيق الا به .

وعدل القول في الشرف ان الناس لا ب وام خلقوا من تراب واعيدوا الى التراب وجروا في مجرى البول وطووا على الاقدار فهذا نسبهم الاعلى الذي يردع اهل العقول عن التعظيم والكبرياء ثم الى الله مرجعهم فتنقطع الانساب وتبطل الاحساب الا من كان حسبه تقوى الله وكانت مائته طاعة الله .

واما النسب الادنى الذي يقع فيه التفاضل بين الناس في حكم الدنيا فان الله خلق آدم من قبضة جميع الارض وفي الارض السهل والحزن والاحمر والاسود والخبث والطيب بقول الله عز وجل (والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا) فخرجت طبائع الارض في ولده فكان ذلك لاختلاف غرائزهم فمنهم الشجاع والجبان والنجيل والجراد والحلي والوقاح والحليم والمجول والدمث والعبوس والشكور والكفور وسببا لاختلاف الوانهم وهيئاتهم فمنهم الابيض والاسود والاسمر والاحمر والاقشر والوسيم والخفيف على القلوب والثقيل والمحب الى الناس

من غير احسان والمبغض اليهم من غير ذنوب وسبب الاختلاف الشهوات والارادات
فمنهم من يميل به الطبع الى العلم ومن يميل به الى المال ومن يميل به الى اللهو ومن
يميل به الى النساء ومن يميل به الى الفروسية ثم يختلفون ايضا في ذلك فثمة من
يسرع الى فهمه الفقه وبطي عنه الحساب ومنهم من يعلق بفهمه الطب وينبو عنه
النجوم ومنهم من يتيسر له الدقيق الخفي وبعناص عليه الواضح الجلي ومنهم من يتعلم
فنا من العلم فيرسخ في قلبه رسوخ النقر في الحجر ويتعلم ما هو اخف منه فيدرس
دروس الرق على الماء ومن طلبة المال من يطلبه بالتجارة ومن يطلبه بالجراية ومن يطلبه
بالسلطان ومن يطلبه بالكيمياء فيشلف بالطمع الكاذب والتماس الحمال ائلة المال ومن
طلبة النساء من يريد المهينة ومن يريد الفناك ومن يريد الغرة الصغيرة ومن يريد
النصف الوثيرة واعجب من هذا من ربما حجب اليه العجوز قال الشاعر :

عجوز عليها كبرة وملاحة اقاتلني يا للرجال عجوز

عجوز لو ان الماء ملك يمينها لما تركتنا بالمياه نجوز

ومن لو لم الغرائز ان من الناس من يحب الدم كما يحب غيره المدح ويرتاح للهجاء
كما يرتاح غيره للشناء ومنهم من يفري بدم قومه وسب نفسه وآبائه وشم عشيرته
منهم عميرة بن جميل التغلبي وهو القائل :

كسا الله حي قلب ابنة وائل من اللوم اصغارا بطيئا نصولها
ومنهم الحرمازي (١) وهو القائل :

ان بني الحرماز قوم فيهم عجز وتسلط على اخيهم
فابعث عليهم شاعرا يحز فيهم يعلم منهم مثل علي فيهم
ومنهم الفحيف وهو القائل في امه :

باليتما امنا شالت نعامتها ايما الى جنة ايما الى نار
ليست بشبعي ولو اسكنتها هجرأ ولا يراولو حلت بذني قار
تاهم الوسق مشدودا اشظنه كأنما وجهها قد طلي بالنار
خرقاه في الخير لا تهدي لوجهته وهي صناع الاذى في الامل والجار

(لها بقية)

(١) يقال له الكذاب الحرمازي واسمه عبدالله بن الاعور وقيل له الكذاب
لكذبه اه من مابقات الشعراء للمؤلف